القرآن الكريم يرشدنا إلى أسباب تعيننا على تغيير حياتنا إلى الأفضل

د. أمجد محمد إدريس

مقدمة

حين نتأمل في مفهوم عبادة الله في هذه الحياة الدنيا سنجد أن الدين بمعناه الأشمل هو دعوة مستمرة للوقوف مع الذات والتغيير المستمر والتطور في فهمنا لمعاني الحياة وكذلك في سبب وجودنا فيها. الدين في معناه الأشمل هو أن نكون عبيد صالحين ويزداد صلاحنا بعدة أسباب وسبل، في مقدمتها معرفتنا بالله عز وجل وقربنا منه وحبه. الله عز وجل يحب أن يرانا نتحلى بأجمل هيئة في دواخل نفوسنا، في أخلاقنا وفي تعاملنا مع الناس من حولنا. هذا هو جوهر الدين. التغيير نحو الأفضل في طاعة الله في هذه الحياة الدنيا نتائجه الرئيسة هي في الحياة الآخرة حيث مقام الثواب، لكن ذلك يستدعي أيضاً الحصول على نتائج مرحلية في هذه الحياة الدنيا. التغيير الذي هو جوهر الدين يتعدى مفهوم العبادة إلى التغيير حتى على الصعيد الإنساني، فحين أكون إنسان أفضل بشكل مجرد من كون أني في أي درجة من درجة العبادة، سنجد أن ذلك يجعلني أشعر بقيمتي في هذه الحياة بشكل أكبر، وتزداد هذه القيمة حين نقرن ذلك بعبادة الله عز وجل كما ينبغي لجلال وجهه عز وجل وهو خالقنا لا إله إلا هو.

التغيير بمفهومه العام قد يكون تغييراً في كل الاتجاهات، فالتغيير قد يحدث بأن تفعل أو أن يُفعل بك، قد يكون بالزيادة أو بالنقصان في فعل الشيء المعين، وقد يكون فعل الشيء بتجويده أو بفعله بغير ذلك. وهذا المعنى الموسع لمفهوم التغيير هو ما ورد في القرآن الكريم كثيراً. المتفكر في آيات القرآن الكريم سيجد أن هناك الكثير من الآيات قد تناولت معاني التغيير بهذا المفهوم الشامل. لكن إذا كنا نود أن نحصر التغيير في معنى محدد المعالم يكون بمثابة معنى عام، سنجد أن القرآن تناول مفهوم التغيير بمعنى المرور من حال إلى حال، مثل أن تكون في حال ضيق فيفرج عنك، أو أن تكون مظلوماً فتنتصر، أو أن تكون محروماً من نعمة ما فتعطى إياها، وغير ذلك من المعاني، وقد تأتي الآيات بعكس هذه المعاني في الاتجاه العكسي، أي أن تكون منعماً فيضيق عليك، وهكذا. حين نوسع المنظور الذي ننظر به إلى مفهوم التغيير في القرآن الكريم،

وبالتدبر في الآيات التي ورد هذا المعنى في سياقها، سنجد أن الله عز وجل قد قدم لنا في آيات القرآن العديد من الأسباب التي تساعدنا في فهم عملية التغيير في كل الاتجاهات، وهذا ما يمكن أن يساعدنا في اختيار الأسباب التي تجعلنا نتغير إلى الأفضل بإذن الله، وهذا بالتأكيد هدف يرغب الجميع فيه.

لعل أشهر الآيات التي أتت على ذكر مفهوم التغيير في القرآن الكريم هي ما قال الله عز وجل فيها (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (53) سورة الأنفال). هذه الآية هي بالتأكيد أكدت على معنى محوري في مفهوم إحداث التغيير، حيث أكد الله عز وجل أن فعل التغيير من لدنه عز وجل، وهو صاحب الأمر ومدبره، إنما يبدأ من عند أنفسنا، أي أننا نحن من نبدأ عملية التغيير، سواء أن كان هذا التغيير قد حدث بناء على نية التغيير وبالتالي نكون نحن من سعينا إلى حدوثه، أو أنه قد حدث نتيجة ما قمنا به من أفعال كان نتاجها واقع جديد. وكي لا نطيل في هذا الشرح المعمم، دعونا نتناول هذه المعاني بشيء من التفصيل لاحقاً. لكن بالعودة للآية من سورة الأنفال، سنجد أن شيوخنا وعلمائنا الأجلاء قد أسهبوا في تفسير وشرح معاني هذه الآية، ولك عزيزي القارئ أن تطلع على هذه المعاني لتزداد فائدتك. لكن سنجد أن ما ركزت عليه أغلب مصادر التفسير هو المعنى المباشر للتغيير من حيث حدوث النعمة أو أخذها، دون التطرق إلي المعاني المختلفة للتفسير بكافة أشكاله.

ولعل أكثر سور القرآن الكريم تقديماً لمعاني التغيير بمفهومه الشامل هما سورتي الكهف ويوسف، حيث قدمت السورتان الكثير من الأسباب التي تعيننا على فهم معاني التغيير وكيفية حدوثه واسبابه. ومما لا شك فيه أن قصة سيدنا يوسف عليه السلام بالتحديد قدمت لنا بالفعل العديد من المعاني التي تسهم في تقديم قدوة لنا بني البشر في السعي لتغيير حياتنا إلى الأفضل، حيث سيكون الله عز وجل بلا شك في عوننا ويسخر لنا الأسباب لتحقيق هذا الأفضل حال تحلينا بما يجعل الله عز وجل راضٍ عنا.

دراسة حالة في مفهوم التغيير

قال الله عز وجل في محكم التنزيل (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (7) سورة يوسف)، وقد رأينا أنه سيكون حتماً علينا حين نتناول قضية التغيير أن نقدم سيدنا يوسف عليه السلام كما قلنا كقدوة لنا مما يساعدنا في فهم أسباب تغيير حياتنا من حال إلى حال.

سنجد بشكل عام أن قصة سيدنا يوسف قد قدمت لنا عبرة في كيفية التفوق على الظروف من حولنا، فكل الظروف التي أحاطت بسيدنا يوسف قد تكون عائقاً يقف في طريق الكثير منا، وقد لا تكون ذات الظروف بالتحديد، لكن تتشابه الأحوال في مجملها بحيث أننا كبشر نصادف في كل يوم من حياتنا تحدٍ جديد قد -ونضع (قد) هذه بين قوسين – قد يعوقنا عن الوصول إلى مرادنا. سورة سيدنا يوسف بدأت برؤية سيدنا يوسف أو الحلم الذي حلم به، وكلنا يعلم أن رؤية الأنبياء هي حقيقة، لكن في ذات الوقت يجب أن نتذكر أن سيدنا يوسف كان يافعاً في وقت حدوث الحلم ولم يكن قد صار نبياً بعد، لكن هذا الحلم كان سارياً في وجدانه، وهو ما جعله يتخطى كل ما مر به من ظروف، وقد يقول قائل إنه قصة سيدنا يوسف قد لا تنطبق علي كل الناس، كون سيدنا يوسف من الأنبياء وأن حال الأنبياء ليس كحال العامة من البشر، وهو ما قد يكون صحيحاً، لكن عودة إلى الآية السابقة (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ) سنجد أن الله عز وجل قدم لنا هذه القصة كآية أو دليل وعلامة لنتعلم منها، وهذه هي حكمة الله عز وجل أنه قد خص يوسف عليه السلام بحدوث هذه الأحداث ولكن جعل هذه الأمر كدرس لنا لنستفيد منه في حياتنا.

لكن دون الدخول في تفاصيل قصة سيدنا يوسف كلها، سنجد أن أهم ما مميز سيدنا يوسف عليه السلام أنه كان من المحسنين. وبعد المرور على كل التفاصيل في القصة سنجد أن هذا الأمر هو أهم أسباب نجاح سيدنا يوسف في حياته، بل أن الله عز وجل أكد هذا المعنى في ثلاثة مواضع من قصة سيدنا يوسف، فقال الله عز وجل في إحدى الآيات من سورة يوسف (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36))، وأكد ذلك مرة أخرى في قوله عز وجل (قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (78)) وأخيراً في قوله سبحانه وتعالى (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا

مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56)). هل تود أن تكون ناجحاً وموفقاً في حياتك مثل سيدك يوسف عليه السلام؟ إذن عليك أن تسعى لتكون من المحسنين. ونقترح عليك عزيزي القارئ أن تطلع أكثر على مفهوم ومعاني الإحسان وكيفية الوصول إليه، وأن تسأل نفسك باستمرار، كيف يمكن أن أكون محسناً؟، وأسال الله عز وجل أن يوفقنا وإياك في هذا السعي. هذا حال سيدنا يوسف عليه السلام، أم حال بني إسرائيل في أمر التغيير كما سنرى لاحقاً، فكان على النقيض من ذلك وهو ما كان السبب الرئيس لتغيير حالهم من الخير إلي الضيق، أضف إلى ذلك عدم ملازمتهم الصبر على ضيق حالهم واستعجالهم لحدوث التغيير، والأهم من ذلك هو معصيتهم لله عز وجل.

وقد قمنا بتقديم هذه الملخص عن قصة سيدنا يوسف عليه السلام وما يمكننا الاستفادة منها في هذا المقام ليقيننا بأن هناك الكثير من الدروس المفيدة التي يمكن أن نتعلمها من رسل الله وأنبيائه ومن حياتهم وما حدث لهم، وفي مقدمتهم سيدي وحبيبي محمد عليه الصلاة والسلام، وأن نجعل ذلك جزء من تجاربنا في الحياة، وهو ما قد يكون بالتأكيد سبباً في نجاحنا في الدنيا والآخرة. لكن علينا أن نسعى باستمرار لفهم هذه الجوانب وأن نوليها اهتمام أكبر في دراستها واستخلاص ما يمكن أن نستفيد منها.

أسباب تعيننا على تغيير حياتنا إلى الأفضل

في سعينا لتحليل معاني القرآن الكريم لمعرفة كيفية تناولت آيات القرآن الكريم لمفهوم ومعاني التغيير، وجدنا أن القرآن الكريم قد قدم لنا العديد من الأسباب التي يمكن أن تساعدنا في تحقيق أهداف التغيير الذي نسعى له، أيان كان هذا التغيير الذي نسعى إليه. وقد قمنا بوضع هذه الأسباب في 27 نصيحة نأمل عزيزي القارئ أن تجد فيها من الفائدة ما يعينك على إحداث التغيير الذي تريده في حياتك.

فيما يلي نقدم سرد شاملاً وسريعاً لهذه الأسباب، على أن نقوم بعرضها بشي من التفصيل المقتضب لاحقاً، وسنقوم بتقديم بعض الآيات التي أوردت معاني هذه الأسباب.

1. عليك أن تفهم لماذا خُلقت في هذه الحياة.
2. أسعى إلى أن ترسخ إيمانك بالله.
3. أبحث عن أسباب يختارك الله بسببها.
4. الجأ إلى الله بالدعاء تضرعاً وبالمناجاة.
5. أسعى إلى التغيير.
6. كن مبادراً إلى التغيير.
7. لا تتعالى على التغيير.
8. أسعى إلى الإصلاح في الأرض.
9. كن ولياً لله واتق الله فيما تفعل يكن التغيير إلى الأفضل هو الجزاء.
10. ابحث عن طريق الاستقامة فهو مسار التغيير.
11. أفهم المعنى الحقيقي للجهاد والمجاهدة، فجاهد وأجتهد.
12. داوم على التفكر في حالك وفيما تفعل.
13. أفهم الغرض من نعم الله عليك.
14. كن موقناً بالله واستعن به في كل ما تفعل.
15. تعود على قول إن شاء الله وأن تتوكل على الله.
16. لا تستسلم ولا تقنط ولا تيأس.
17. لازم الصبر على ضيق الحال فأمرك كله خير لك ولا تستعجل التغيير.
18. استمع إلى الوحي الذي داخلك.
19. تخير من يعينك على التغيير.
20. اتبع سبيل العلم يرفع مقامك ويغير حياتك.
21. داوم على شكر الله وأحرص عليه فهو الدليل.
22. أسعى لفهم أسباب نعم الله عليك وتفكر في حكمته في حالك.
23. لا تستبدل الذي هو خير بالذي هو أدنى، تمهل وكن واعياً للتغيير الذي تريده.
24. داوم على ذكر الله وأحرص عليه فهو السبيل.
25. أحرص على علاقتك بالقرآن فهو ما يهديك إلى سبيل التغيير.
26. افهم من هم أعدائك في طريق التغيير.
27. اتعظ مما حدث لقارون حين غير الله حاله من حال إلى حال.

والان دعونا نتناول معاً بشيء من التفصيل هذه الأسباب.

عليك أن تفهم لماذا خلقت في هذه الحياة:

مما لا شك فيه أن أهم محفزات التغيير نحو الأفضل هو أن أفهم الغرض الأساسي الذي من أجله أنا موجود في هذه الحياة، وقد خط لنا القرآن الكريم هذا المعنى بكل وضوح في قول الله عز وجل (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) سورة الذاريات).

البحث عن المعنى من الوجود (أو كما يسمى في اللغة الإنجليزية **purpose**) هو من أكثر المحاور التي ركزت عليه أغلب النظريات الحالية حول كيفية حدوث التغيير، وتقوم الفكرة بعد ذلك على أساس أن الإنسان يقوم بتوجيه طاقته وأفعاله بحيث يحقق هذا الغرض أو الهدف من الوجود في الحياة، بحيث تتمحور كل طاقتك وجهودك في هذا السعي. عبادة الله عز وجل كما علمنا سبحانه وتعالى في القرآن الكريم وعبر النبي الكريم عليه الصلاة والسلام هي ما يجب أن نركز عليه وعلى تحقيقه، وهذا ما سيساعدنا في تحديد أهداف التغيير التي ننشدها. لكن هذا المعنى لا يتنافى مع أنه يمكن أن تكون هناك أهداف أخرى في الحياة يمكن للإنسان أن يسعى إلى تحقيقها. ركز على هذا المعنى دائماً في حياتك وتذكر دائماً أنك في هذه الحياة لتعبد الله الذي خلقك، ولتعبده بكافة أنواع العبادات التي تمكنك من الحصول على مقام عال عنده مالك الملك.

أسعى إلى أن ترسخ إيمانك بالله:

مما لا شك فيه أن الإيمان الراسخ بالله عز وجل هو أساس عبادة الله عز وجل على النحو الصحيح، الإيمان مرحلة مهمة للغاية في سبيل الوصول إلى مرحلة الإحسان التي دعمت سيدنا يوسف في مسيرة حياته، فبدون تحقيق الإيمان لا يتحقق الإحسان. لكن لعل الكثير منا نحن المسلمون نقف في حدود إسلامنا ولا نتعدى ذلك إلى مرحلة الإيمان ومنها إلى مرحلة الإحسان، وقد أكد ذلك الله عز وجل في قوله سبحانه (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) سورة الحجرات).

أما فيما يتعلق بعلاقة الإيمان بمفهوم التغيير، فلعنا سنجد أن هذه الأمر أوضح من أن نخوض في تفصيله، لكن لعنا نمر على بعض الآيات التي توضح لنا هذه العلاقة. فيقول الله عز وجل في محكم التنزيل (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (96) سورة الأعراف). ففي هذه الآية يؤكد الله عز وجل أن الإيمان هو سبب مباشر في زيادة رزق الأمم والشعوب خاصةً المؤمنة منها، والشعوب في أساسها هي تتكون من الناس، وبالتالي فإن إيمان الناس هو محدد أساسي في مستوى المعيشة التي يتحصلون عليها، ويقدرها الله عز وجل لهم، هذا بالطبع ضمن عوامل أخرى في المفهوم الاقتصادي لمستوى المعيشة.

وفي آية أخرى تقدم لنا معنى مختلف لكن في ذات السياق، يقول رب العزة (قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (25) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (26) سورة المائدة). سنجد أن نقص إيمان بني إسرائيل كان سبباً أساسياً في قولهم كلمة الكفر (فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا) وكأنهم يشككون في قدرة الله عز وجل ويستهزئون من سيدنا موسى في ذات الوقت. نقص الإيمان هذا أودى بهم أن يغير الله عز وجل حالهم من الوسع إلى الضيق، وكل عزيزي القارئ أن تقرأ في كتب التفسير عما حدث لهم في هذه الأربعين سنة من سنوات ما يعرف بالتيه.

واخيراً سنجد أن الإيمان من عدمه هو ما سيحدد لك بشكل عام شكل حياتك وما هي عليه وما ستكون عليه، فيقول الله سبحانه وتعالى (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (122) سورة الأنعام).

أبحث عن أسباب يختارك الله بسببها:

حين واعد الله عز وجل سيدنا موسى عليه السلام، وحين أتى سيدنا موسى إلي الجبل قال له الله عز وجل (وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) سورة طه). لعلنا في هذا المقام لا نود الدخول في تفاصيل تفسير قول الله عز وجل (أخترتك)، لكن الاختيار في معناه العام يدل على أن هناك أسباب قدمت سيدنا موسى عليه السلام دون غيره ليكون كليم الله، وقد قيل في الاثر مما لا نؤكد يقيناً (إن الله تعالى قال: يا موسى، أتدري لم خصصتك بالتكليم من بين الناس؟ قال: لا، قال: لأني

لم يتواضع لي أحد تواضعك). ما يهمنا في هذا المقام، أنه في العادة تكون هناك أسباب تجعل من أحدنا أقرب أو أبعد من أن يحدث له التغيير الإيجابي في حياته، هذه الأسباب تكون في العادة مرتبطة بذاتنا وبما نحن عليه من حال. هذه الأسباب هي ما يميزنا إيجاباً أو سلباً. لكي نجعل الله عز وجل ينظر إلينا بعين الرحمة ويعيننا على التغيير الإيجابي نحو الأفضل في حياتنا فيجب علينا أن نعي تماماً للأسباب التي يحب الله عز وجل أن يراها فينا وفي دواخلنا، تواضع سيدنا موسى لله عز وجل رفع مقامه عند الله سبحانه وتعالى وقدمه على الكثير من عباده الصالحين، كما سنرى لاحقاً، كانت عكس هذه الصفة موجودة في قارون وهو ما جعل الله عز وجل يغير حاله من حال طيب إلى حال الضيق والعدم. وقد مررنا على مقال جميل للغاية بعنوان (لماذا محمد) قدم كاتبها تحليلاً جميلاً حول الأمور التي ميزت سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وقدمته لكي يكون خير البشر ونبي آخر الزمان.

عليك أن تبحث في داخلك عما يميزك، ابحث عن شيء يجعلك ممن يصطفيهم الله عز وجل ويجعله سبحانه وتعالى يغير حالك من حال إلى آخر أفضل منه في طاعته عز وجل، ويرفع به شأنك في الدنيا وفي الآخرة، وليس ذلك على الله ببعيد. هل تعرف ما هي مميزاتك التي تعينك على هذا الأمر؟

الجأ إلى الله بالدعاء وبالمناجاة تضرعاً:

في بحثنا هذا وجدنا أن أهم أسباب التغيير وأسهلها على الإطلاق في حياتنا هو الدعاء، بل وجدنا أن أكثر آيات القرآن الكريم التي تناولت معاني حدوث التغيير في حياة البشر أتت مرتبطة بالدعاء ومناجاة الله واللجوء إليه.

عزيزي القارئ، إذا أردت أن تتغير وأن يتغير حالك، فعليك باللجوء إلي الله عز وجل، اساله عونه واساله توفيقه. بل أن رب العزة قد فتح الباب بيننا وبينه فقال أعز من قال (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186) سورة البقرة)، بل سنجد أن الله عز وجل أكد على أن تغيير الحال ورفع البأساء والضراء لا يحدث إلا من خلال الدعاء والتضرع له عز وجل (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (95) سورة الأعراف)، ومثل ذلك في قول الله سبحانه وتعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ

(42) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (43) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44) سورة الانعام).

أما قيمة الدعاء لا يعرفها إلى من يداوم على الدعاء، خاصةً من كان في حال الكرب والضيق وأراد أن يساعده الله عز وجل ويكشف عنه حال الضيق الذي هو فيه (قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63) سورة الأنعام)، وفى مثل ذلك يقول الله عز وجل (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22) سورة يونس).

وسنجد أن أكثر من طلب عون الله عز وجل في إحداث التغيير في حياتهم هم الرسل والأنبياء عليهم السلام وفي مقدمتهم سيدنا إبراهيم عليه السلام، فها هو سيدنا إبراهيم يدعو لتغيير حال أرض الجزيرة العربية أو بالتحديد أرض مكة الحالية (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126) سورة البقرة)، وهذا سيدنا سليمان يدعو الله عز وجل ويساله أن يغير حاله بالتمكين في الأرض (وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (34) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (35) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (36) سورة ص)، وهذا سيدنا يونس يدعو رب العزة أن يرفع ما به من هم وغم (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88) سورة الأنبياء)، أما سيدنا زكريا فقد قدم لنا صورة لكيفية هذا الدعاء (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3) سورة مريم)، الدعاء خفية والمناجاة هما سمة العباد الصالحين الذي يعينهم الله عز وجل في تغيير حالهم، وها هو الله عز وجل يستجيب لسيدنا زكريا فيغير حاله ويهبه الولد الذى كان يتمنى (وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (90) سورة الأنبياء). إذا كان هذا هو حال الأنبياء في طلب العون من الله عز وجل في تغيير حالهم وواقعهم وهم خير البشر،

فكيف يكون حالنا نحن المساكين؟ هلا اقتدينا؟ علينا بالتوجه إلى الله عز وجل ليحقق لنا مرادنا في شئون حياتنا.

بل سنجد أن من بني إسرائيل من أدرك هذه المعاني المهمة للغاية، وكيف أن سلاح الدعاء هو من أهم أسلحة النصر على الأعداء وسبباً من أسباب تغيير الحال، فيقول الله عز وجل عن قوم منهم (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148) سورة آل عمران).

عليك عزيزي القارئ أن تشكي حالك إلى الله وحده لا لغيره، اقترب من الله عز وجل وأطلب عونه في أن يعينك على تغيير حالك، لا تذهب إلى غيره ممن هم دونه. كن كسيدنا موسى عليه السلام الذى لم يرفع يديه إلا إلى الله عز وجل ليغير حاله (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) سورة القصص).

وأخيراً عزيزي القارئ، إذا أدركت أنك سائرٌ في طريقك إلى الله، وأنه عز وجل قد من عليك بهدايتك إليه وإلى معرفته، فأساله أن يمن عليك بالتثبيت على الحق وأن لا يردك ويغير حالك من الهدى إلي الضلالة مرة أخرى (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (8) سورة آل عمران).

أخيراً سؤال لك عزيزي القارئ: هل تعرف كيف تتضرع إلى الله عز وجل وكيف تناجيه؟ هل حدث أن كنت أنت وحدك في ظلمات الليل وبدأت في مناجاته سبحانه وتعالى وطالباً العون منه في أن يساعدك في تغيير حالك؟ إذا كنت ممن أنعم الله عليهم بتجربة هذا الأمر، فأحمد الله على هذه النعمة، وإن كنت لم تمر بهذه الحالة من قبل، فعليك بها... لا نستطيع أن نقول لك أكثر من ذلك، جربها ولن تندم وسترى النتائج بنفسك.

أسعى إلى التغيير:

يعلم من يعمل في مجالات تطوير القدرات وتطوير الذات أن السعي نحو التغيير هو مفهوم أساسي في عقيدة التغيير، فبدون إرادة الحصول على نتائج التغيير تصبح عملية التغيير عملية وقتية ينعكس مفعولها بمجرد زوال المؤثر دون حدوث تغيير حقيقي في حياة الإنسان. ولعنا تعرضنا لهذا المعنى في بداية تحليلنا هذا، وهذا أيضاً ما أكدت عليه عدد من الآيات القرآنية. فعلى سبيل المثال يقول الله عز من قال (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11) سورة الرعد). الله عز وجل أكد أنه قد أعطى الناس مطلق الاختيار في قرار تغيير حالهم، سواء أن كان هذا التغيير بالمعنى الإيجابي أو السلبي، الله عز وجل أعطانا مساحة في حياتنا نحدد فيها ماذا نريد أن نرى في مستقبلنا الدنيوي أو في الآخرة، لكن علينا أن نسعى لتحقيق هذا التغيير، هذا السعي هو في حقيقته محور حياتنا منذ ولادتنا وحتى مماتنا، وهو واقع نعيشه أو يجب أن نعيشه في كل يوم منذ أن نستيقظ وحتى اخر اليوم. ولعل استعمال أفعال المضارع في هذه الآية (يغير ويغيروا) هي للتأكيد على كون عملية التغيير هي مفهوم مستمر وغير مرتبط بحدوث شيء بعينه، بل هو تأكيد لمبدأ ما نقول به أن لا ثابت إلا التغيير. عليك بالسعي المستمر لتغيير حالك، وليكن التغيير الإيجابي هو هدفك الدائم، اسع دوماً لما هو خير لك في دنياك وفي اخرتك، واسع دوماً إلي رضا ربك في كل حين وفي كل حال.

كن مبادراً الي التغيير:

لعل السعي إلى إحداث التغيير لا يمكن فصله من المبادرة في إحداث التغيير، ففي حين أن السعي لإحداث التغيير هو في العادة مرتبط بالتغيير الفردي أي على المستوى الشخصي، سنجد أن المبادرة في إحداث التغيير تظهر بشكل أكبر في حال الرغبة في التغيير على مستوى المجتمع، لكن بالقطع فإن أي مبادرة مجتمعية للتغيير على مستوى المجتمع يجب أن تجد من يقودها من أفراد المجتمع لكن ذلك لا يتنافى مع أهمية الشعور الجماعي بالمسئولية. هذا الجانب هو من الجوانب المهمة التي سعى القرآن الكريم إلى تناولها وتوعية الناس بها. وسنجد أن عدد من الآيات تناولت هذا الجانب لتوضيح هذا المعنى، فيقول الله عز وجل (كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ

بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (69) سورة التوبة). لعل هذه الآية قدمت لنا معنى مهم للغاية في مفهوم كيفية إدارة حياتنا المجتمعية، وكيف ننسى أحياناً أو نتناسى أهمية التغيير وألا ننجر وراء العادات والأفعال التي نجد الناس عليها أو نتشبه بآخرين كون أنهم أكثر نجاحاً منا دون أن نتوقف ونقيم هذه العادات والأفعال، وهل هي ما نود فعلاً أن نقوم به في حياتنا أم لا؟ الآية قدمت لنا عظة مهمة في جملة (وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا) أي أننا فعلنا في حياتنا مثل ما فعل الآخرون من دون تفكير أو مبادرة لتغييره حين نعلم أنه لا يفيد في شيء.

إرادة التغيير قد تكون إرادة جمعية وتنبع من مسئولية جمعية، لكن هذه المسئولية تقتضي وجود مبادرات مجتمعية الطابع. ولعلنا قد نجد فيما سمي بثورات الربيع العربي (الذي حدث بين عامي 2010-2011م) خير مثال على هذا الجانب. فالرغبة في التغيير قد تقتضي البداية من المستوى الفردي، لكن لتحقيق التغيير لابد من مبادرة الجماعة لتحقيق هذا التغيير، وهذا هو ما يظهر على شكل ثورات. سنجد أن القرآن الكريم قد قدم لنا نموذجاً على ضرورة المبادرة الجمعية لتحقيق التغيير، بل سنجد أن الله عز وجل قدم هذه المبادرة على كون أنها واجب من الواجبات لأفراد المجتمع نحو مجتمعهم، فيقول الله عز وجل في محكم التنزيل (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104) سورة آل عمران)، ومثل ذات المعنى في آيات أخرى في قوله عز وجل (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (97) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (98) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (99) وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (100) سورة النساء). في هذه الآيات سنجد أن مبادرة التغيير هي في الأساس تنبع من الشعور بالمسئولية الجماعية في تحقيق التغيير والسعي في إحداثه. ولعله من الضرورة في مقام هذه الآيات أن ننبه إلى أهمية أن لا نحصر هذا المفهوم فقط في الحل الذي قدمته الآيات -والممتثل في الهجرة في نواحي الأرض- وإنما يجب علينا أن نعي المعنى الأشمل في سياق الآيات.

لا تتعالى على التغيير:

المقاومة لحدوث التغيير هو شيء طبيعي في دواخلنا، ودوماً ما نجد أنفسنا لا نميل إلى التغيير لكون أنه شيء غير مريح، هذا جانب طبيعي ومعتاد أن تكون هناك بعض المقاومة داخل نفوسنا لهذا الأمر، لكن الأخطر في هذه المقاومة أن تكون نابعة عن التعالي في دواخلنا، فالنفس البشرية – بل حتى نفوس الجن وابليس منهم – لديها النزعة نحو الكبرياء والتعالي حين يتعلق الأمر بالتغيير. ولهذا نقول إن من أهم أسباب التغيير بعد وجود الرغبة والسعي في تحقيق التغيير هو الحرص على عدم التعالي على البدء في إحداث التغيير. وقد قدم لنا القرآن الكريم عدة نماذج على معاني الكبر والتعالي حين يتعلق الأمر بتغيير عادتنا ومفاهيمنا، فهذا ابليس لعنه الله يتكبر ويتعالى حين يطلب الله عز وجل منه أن يسجد لآدم، فيقول الله عز وجل في ذلك (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) سورة الأعراف). التكبر كان سبباً في منع ابليس من قبول تغيير الواقع بعد خلق آدم عليه السلام وأن الله عز وجل فضله عليه وأنكر على الله عز وجل هذا الأمر، فكان كبره هو ما منعه من قبول التغيير وهو ما جعل الله عز وجل يطرده من رحمته ومن جنته. سنجد أن القرآن الكريم قدم لنا نماذج أخرى في ذات السياق، فقال الله عز وجل في محكم التنزيل على سبيل المثال (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) سورة البقرة)، بني إسرائيل كابروا وتعنتوا في حالهم ولم يتقبلوا النصح من الآخرين ومن أنبيائهم وأصروا على ما يفعلونه، فكانت النتيجة أنهم صاروا ملعونين إلى يوم القيامة.

على النقيض من ذلك سنجد أن سيدنا يونس عليه السلام قدم لنا خير مثالٍ وقدوة على عدم التمادي في التعالي والمكابرة، وكيف أن الرضوخ والإذعان لما يجب أن يكون هو المفتاح للنجاة والنجاح، فيقول الله عز وجل في ذلك (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88) سورة الأنبياء). فبعد أن خرج سيدنا يونس من قومه دون إذن من الله عز وجل ظناً منه أنه لا ضير في ذلك، أتاه الله بالابتلاء لكي يعلم ما هو مقام الله وقدرته، هنا أناب سيدنا يونس إلي الله عز وجل ولم يتعالى عليه ولم يتمادى في التكبر على الله عز وجل بعد

أن علم بالخطأ الذي فعله، فكان ذلك سبباً في رضا الله عز وجل عنه وتغيير حاله بكشف الضر عنه.

لكن علينا أن نقر أن الأمر في بعض الأحيان لا يكون تعالياً بالمعنى المباشر للتعالي وللكبر، لكن ما يمنعنا من تحقيق عملية التغيير هو غلق عقولنا على ما يفعله الناس من حولنا دون التفكر فيه، أو أن نخاف مما يمكن أن يحدث أن نحن غيرنا ما نفعل بحيث يتعارض ذلك مع ما يفعله الناس من حولنا. عليك عزيزي القارئ ألا تغلق عقلك وتفكيرك بما هو حولك وما يفعله الناس في حال كانوا على خطأ أو باطل، فهذا أكبر معوقات عملية تغيير الحال، ولا تكون كمن لا يؤمن بالله عز وجل حين يدعى إلى الإيمان لهذا السبب (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (170) سورة البقرة)، أو كمثل من قال فيهم الله عز وجل (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91) سورة البقرة).

أسعى الي الإصلاح في الأرض:

كنا قد تحدثنا عن أن التغيير هو معنى شامل لما هو إيجابي أو سلبي بالمعنى المطلق، وكذلك التغيير بالزيادة أو النقصان فيما نفعل. ولعلنا قد نود في هذا المقال أن نركز أكثر على المفهوم الإيجابي للتغيير، وهو التغيير نحو الأفضل من منظور الإنسان المسلم. ومن خلال بحثنا في القرآن الكريم وجدنا أن الإصلاح في الأرض هو ما يمكن اعتباره المعنى الأشمل لمفهوم التغيير الإيجابي لما قد يسعى الإنسان المسلم لتحقيقه في سعيه نحو التغيير. والعالم بقصة خلق سيدنا آدم سيجد أن التحفظ الأول للملائكة على خلق سيدنا آدم (إذا جاز استعمل كلمة تحفظ) كان هو أن الإنسان سيفسد في الأرض (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) سورة البقرة)، فكان الفساد في الأرض هو الشيء الأساسي الذي يجب أن يتجنب بنو آدم أن يفعلوه في الأرض، بل لزم على بني آدم أن يصلحوا في الارض، (يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (35) سورة الأعراف، وكان هذا وعد الله لعباده المصلحين الصالحين (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105) سورة الأنبياء). الإصلاح في الأرض يجب أن يكون

هدف يسعى جميع البشر لتحقيقه لتكون الحياة أفضل للجميع، وهذا المعنى أصبح اليوم من المعاني الأساسية في كل نظريات التنمية المجتمعية، وأصبحت نظريات التغيير الاجتماعي كلها تقوم على هذا الأساس بحيث يسعى الجميع إلى تغيير العالم لما هو أفضل.

وقد قدم لنا القرآن الكريم الكثير من النماذج على معاقبة الشعوب والأمم التي تجاهلت هذا المفهوم وهذا المعنى في أسلوب حياتها، فكانت النتيجة الحتمية لعدم التطلع للتغيير نحو إصلاح الأرض أن أصبح الفساد هو السمة العامة في المجتمع مما أسهم في نهاية حضارات هذه الأمم، فقال الله عز وجل عنهم (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (116) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (117) سورة هود)، ومثل ذلك في قول الله عز وجل (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (6) سورة الأنعام).

هذه المعاني هي محاور أساسية في استدامة تنمية المجتمع يجب أن يعيها قادة المجتمع، حيث أن المجتمع يكون متطوراً بقدر تطور هذه الأفكار في أوساط أفراده.

غير أن الإصلاح في الأرض ليس فقط محور مجتمعي، بل هو في الأساس يبدأ من مستوى الفرد وصولاً إلى المجتمع. فكل فرد في المجتمع يجب أن يكون هدفه هو أن يصلح في المجتمع الذي يعيش فيه، بل يجب أن يكون هذا الأمر أحد القيم الأساسية لكل فرد منتج في المجتمع، يقول الله عز وجل في ذلك (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77) سورة القصص). التغيير الذي نتحدث عنه بالإجمال يبدأ في العادة على مستوى التفكير والوعي الفردي، إن لم تحدث طفرة في طريقة تفكير الأفراد بتناول هذه المعاني، فلن يكون هناك إصلاح في المجتمع علي المستوى الجماعي، فإن كان المجتمع فيه قلة قليلة من الناس هم من يسعون إلي إصلاح المجتمع وتغييره إلي الأفضل، فسيكون التغيير الفعلي علي مستوى محدود ولن يكون له أثر في حياة الناس، وهذا للأسف هو واقع حياة الإنسان منذ خلق آدم، فأغلب الناس لا يكون لديهم هذا الحس بالمسئولية في ضرورة إصلاح الأرض بل يعيش الناس وفق ما أتفق دون الوقوف والنظر في حال المجتمع ككل، وكأن لسان حالهم يقول "وأنا مالي!!". السؤال هل أنت كذلك عزيزي القارئ؟

كن ولياً لله واتق الله فيما تفعل، يكن التغيير إلى الأفضل هو الجزاء:

لعل المقام ليس مقام الحديث عن تقوى الله وأهميته في حياة الإنسان بشكل عام، وليس كذلك بمقام الحديث عن كيف يكون الإنسان ولياً لله عز وجل أو العكس أن يكون الله ولياً له، لكن ما نود التأكيد عليه هنا أن هذه المعاني هي محور أساسي في صميم عقيدة المسلم ومفاهيم عبادته لله عز وجل. لكن في سياق الأسباب التي تعين على تحقيق مساعي الإنسان نحو أهداف التغيير الذي قد يسعى له، سنجد أن القرآن الكريم أوضح لنا العلاقة المباشرة بين تقوى الله عز وجل وأهميتها في إعانة المسلم في هذا الأمر، يقول الله عز وجل في ذلك (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (257) سورة البقرة)، هذه الآيات تجعلنا أيضاً نتناول معنى التغيير في سياق العبادة، فالآيات قدمت التغيير بمعنى الهداية وأيضاً نقيضها وهو الضلال، وبتناول ذلك بمعاني التنقل بين النور والظلمات. فتغيير حالك بخروجك من الظلمات إلى النور يرتبط بعلاقتك القوية مع الله عز وجل، والعكس تماماً في علاقتك مع الطاغوت وهم الشياطين من الأنس والجن ممن يفسدون في الأرض. ولا شك أن التنقل من الظلمة إلى النور يقتضي التمرحل في هذا التنقل من الظلمة الشديدة إلى أرحب مساحات النور حيث يطغى نور الله على ما سواه حين تكون في أقرب حالاتك إلى الله عز وجل. هذا التشبيه هو بالضبط حال الإنسان في هذه الحياة الدنيا، فالله عز وجل يحيينا حين يعرفنا بذاته عز وجل وأنه هو ربنا ونحن عبيده، فحينها نحيا ونبدأ بالخروج من الموت المظلم نحو حياة لا يذوق طعمها الكافر أو المشرك (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (122) سورة الأنعام)، وتستمر عملية الخروج من الظلام والدخول في أنوار الله ونتطور في هذه الرحلة وفقاً لدرجة تقوى الله التي نصلها في حياتنا. هذه المعاني الفلسفية في حدوث عملية التغيير في دواخلنا يجب أن تكون من أساسيات فهمنا لعلاقتنا مع الله عز وجل، ليس هناك إنسان على وجه الأرض موجود منذ اليوم الأول في مساحات أنوار الله عز وجل، وإنما هي رحلة تغيير يكتبها الله عز وجل لنا لننتقل وفق إرادتنا إلى حيث توجد هذه المساحات، ويجب علينا فهم هذا المعنى جيداً لكي تسهل علينا عملية التغيير المستمر نحو الأفضل، والذي تكون غايته إرضاء الله عز وجل.

عليه ستكون النتيجة الحتمية لتحقيق معاني تقوى الله وكيف أنها تؤثر على حدوث الأفضل لنا بإذنه عز وجل أن من يتق الله يجعل له مخرجاً من الضيق والشدة، ويرزقه رزقاً لا يفكر فيه، ويجل له من أمره يسراً وكل هذه الأمور هي من مظاهر تغيير الحال الذي يطمح له الإنسان بشكل عام. فيقول الله عز وجل في ذلك (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3) وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (4) سورة الطلاق).

إذن علينا جميعاً بتقوى الله عز وجل كي ييسر الله لنا كل ما نبغي في هذه الحياة الدنيا ويسهل علينا تغيير واقع حياتنا نحو الأفضل في كل الأبواب.

ابحث عن طريق الاستقامة فهو مسار التغيير:

ارتباطا بالنقطة السابقة التي تحدثنا عنها، ودون الإطالة في الحديث، فإنه مما لا شك فيه أن استقامة الإنسان على ما أمر الله عز وجل به هو سبب من أسباب سهولة حدوث التغيير الذي نطمح له وهو سبب في أن يكون الله عز وجل ولياً لنا في حياتنا في الدنيا والآخرة كما وعدنا ربنا عز وجل في قوله (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31) سورة فصلت). ابحث دائماً عن طريق الاستقامة، وقيم حالك في كل وقت كي ترى هل أنت على طريق الاستقامة أم لا، إذا وجدت نفسك سائراً عليه، فأحمد الله على ذلك وحافظ على مسيرك وأسعى أن تتقدم فيه، وإن لم تجد نفسك على طريق الاستقامة، فحينها يمكن أن تعتبر نفسك من المحظوظين وأن تشكر الله على نعمة تعريفه لك بحالك، حينها تكون العودة نحو الطريق المستقيم هي هدف التغيير الذي يجب أن تحدثه في حياتك. هذا المعنى يجب أن يكون دائماً ضمن فهمك لما يجب أن يكون عليه التغيير في حياتك، أسال نفسك من حين إلى آخر، هل أنا على طريق الاستقامة أم لا؟ وإذا كنت لا تدري ما هو طريق الاستقامة، فسيكون لزاماً عليك أن تعرف ما هو طريق الاستقامة، ومن ثم يكون حينها لديك خطة واضحة لما يجب أن يكون هدفك من التغيير، وتأكد في حينها أن الله عز وجل سيعينك

في سعيك كما جاء في الآية التي تعرضنا لها سابقاً، فهذا وعد منه لعباده. اللهم أهدنا إلى طريقك المستقيم، وأعنا على السير فيه في حياتنا وفي آخرتنا.

أفهم المعنى الحقيقي للجهاد والمجاهدة، فجاهد وأجتهد:

لعل الكثير من أخوة الإسلام قد بدأوا في نسيان المعنى الحقيقي للجهاد والمجاهدة، والذي يبدأ في الأساس من مجاهدة النفس والجهاد في سبيل ذلك، ونسى الكثير منا كيف أن هذا المعنى هو في الحقيقة من دعائم بناء التغيير في حياتنا. مما لا شك فيه أن النفس بطبعها وطبيعتها تسعى إلى الراحة، وتسعى إلى الشهوة وتسعى إلى المكانة وتسعى إلى الزينة وغيرها من الأهداف التي تسعى كل الأنفس لتحقيقها وكل هذا شيء طبيعي في أنفسنا لا يجب أن نستغرب منه. وقد يختلف ما تسعى إليه النفس باختلاف ذات الإنسان مكاناً وزماناً ناهيك عن اختلاف الناس فيما بينهم. هذا الأمر هو جزء محوري في فهم عملية التغيير في حياة الإنسان. لدرجة كبيرة سنجد أن نفوسنا هي من يقود عملية التغيير المعتاد داخلنا، وهي (أي النفس) من ينقلنا من حال إلى حال وفق ما تطلب الأمر، وهنا يكمن الخطر حيث أن هناك قاعدة مهمة في حياة كل منا يجب أن نعيها (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53) سورة يوسف)، هذا الجانب في نفوسنا هو مكمن الخطر، حيث أن من يترك الحبل على الغارب لهوى نفسه فإنها بلا شك تقوده إلى سبل السوء في كافة أشكاله، لكن أحياناً قد لا يكون سبيل السوء هو فعل السوء في حد ذاته بل قد يكون في ترك عمل الخير، أو التراخي والتهاون فيه، وهذا من طبائع النفوس.

لهذا كان أحد أهم الأسباب في تحقيق عملية التغيير في حياتنا هو فهمنا لأنفسنا وما تحاول دائماً أن تدركه، وفهم أهمية مغالبتها ومجاهدتها في سعيها هذا. الإنسان يجب أن يكون في حالة جهاد دائم مع نفسه كي يكتب له النجاح في عملية التغيير نحو الأفضل، وكذلك في تحقيق الغايات من عملية التغير المتمثلة في إرضاء الله عز وجل فيما يلي العبادة والإصلاح في الأرض بما نستطيع، لذلك قال الله عز وجل في هذا الشأن (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69) سورة العنكبوت)، ويقول كذلك في محكم التنزيل (الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (4) مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآَتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (5) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ

الْعَالَمِينَ (6) سورة العنكبوت). والفتنة هي بالأساس مساحة لاختبار النفوس ومدى مقدرتنا على تخطي محنة الفتنة، سواء أن كانت هذه الفتنة في فعلٍ ما نحب أن نفعله أو ما تميل نفوسنا لفعله، أو في شيءٍ ما نحب امتلاكه، أو مقامٍ ما نود الوصول اليه، أو تغيير يحدث فيما نعتقد أو نفعل أو غيرها من مظاهر الفتنة. لهذا جاءت هذه الآيات لتؤكد لنا أن الجهاد الحقيقي هو في مقاومة ما تفتن به نفوسنا من محفزات تحيد بنا عن الطريق المستقيم فيما يرضي الله عز وجل عنا. وعليك عزيزي القارئ ألا تدع النفس أو الشيطان أو الناس من حولك يقومون بخداعك في هذا الجانب، وهو باب طويل لا نود الولوج فيه لكثرة ما يمكن قوله في هذا الجانب، لكن عليك أن تعي أن أهم الأدوات التي يجب أن تستغلها لتحقيق أهداف التغيير الإيجابي أو منع التغيير السلبي هو مجاهدة النفس. فهل أنت ممن يجاهدون أنفسهم؟

داوم على التفكر في حالك وفيما تفعل:

من الأدوات المهمة التي يجب أن نعي أهميتها في عملية التغيير والتي نبهنا إليها القرآن الكريم، هي عملية محاسبة الذات بسورة مستمرة والمداومة على تفكرنا في أحوالنا وفيما نفعل، ومن ثم نقوم بقياس ذلك على مقياس العمل الصالح الذي أمرنا الله بفعله أو دلنا عليه الرسول الكريم عليه الصلاة واتم التسليم. المداومة على محاسبة الذات والتفكر في الحال هو من شأن الأشخاص المتفوقين في كل نواحي حياتهم، بل واخرتهم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18) سورة الحشر). ولعلك عزيزي القارئ قد وجهت إليك مثل هذه النصيحة مراراً وتكراراً من قبل بعض من تعرف أو في خلال تدريبك أو دراستك أو غيرها. هذه المحاسبة من الأدوات المهمة للغاية لتحديد أجندة التغيير التي يجب أن تسعى إلى تحقيقها في الفترة المقبلة من حياتك، وقد ترتبط هذه الأجندة أو الأهداف بنواحي دنيوية من حياتك أو بآخرتك على حدٍ سواء. والجميل في عملية المحاسبة أنها تمكنك ألا تقع في فخ ما يقوم به الشيطان والنفس من تزيين ما تقوم به من عمل، وقد نبه الله عز وجل لهذا الأمر في قوله سبحانه وتعالى (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) سورة الكهف)، فقد تظن أن ما تقوم به من عمل هو شيء جيد بالمفهوم المطلق، لكن في غياب عملية المحاسبة المبنية على مرجعية ثابتة فإنه لا يمكنك بالتأكيد معرفة إن كنت في الطريق الصحيح أم لا، وإذا ما كان يجب عليك تغيير شيئاً ما فيما تفعل.

أحرص على هذا الجانب المهم في فهم الذات والقدرة على تطويرها، وأسال الله أن يعينك على ذلك.

أفهم الغرض من نعم الله عليك:

لعلنا قد نبدأ مع بعض الآيات من القرآن الكريم لتمهد لنا الطريق لما نود أن نناقشه في هذا الجانب، وذلك من قول الله عز وجل في محكم التنزيل (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (32) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (33) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (34) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (38) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (39) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (41) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42) سورة الكهف).

الكثير من الناس يفقدون بعض -أو في بعض الأحيان كل- مما أنعم الله عليهم به من النعم المختلفة وأشكال الرزق المختلفة، وقد وعدنا الله عز وجل بحدوث ذلك لا محالة في حياتنا فهذه سنته في الأرض (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) سورة البقرة). ما نود أن نشير إلى أهميته في هذا الجانب في حال حدث لنا شيء من الابتلاء هو أن نسعى لفهم الأسباب التي من أجلها ابتلانا الله عز وجل وتسببت في فقدان هذه النعم. هذا الأمر مهم للغاية خاصةً في حال فقدنا شيء من المال أو الجاه أو ما شابه. وعودة إلى الآيات التي بدأنا بها، وبنظرة فاحصة في معاني هذه الآيات، سنجد أن الله عز وجل قد ابتلى أحد الرجلين بفقدان جنتيه وذلك لأسباب عديدة أوضحتها الآيات. ما يهمنا في هذا المقام، أن الله عز وجل بحكمته سبحانه وتعالى قد قدم لنا هذا النموذج أو هذه القصة لكي يلفت انتباهنا إلى إدراك هذه المعاني من أجل العظة بشكل أساسي، لكن أيضاً من أجل أن نعي الدروس ونستفيد

منها في حياتنا وكذلك من أجل النظر إلى حياتنا بذات المنظور، وهذا ما يجب أن يكون عليه حال كل إنسان. فالابتلاء جزء من طبيعة الحياة، والابتلاء هو مظهر من مظاهر التغيير الذي يطرأ على حياتنا. أحياناً يكون هذا الابتلاء في الدنيا بسبب ما فعلنا، وهنا تكمن أهمية فهم هذه الأسباب التي أدت إلى تغيير حالنا من سعةٍ إلى ضيق، وبذلك يمكننا تجنب وقوع هذه الأسباب مرة أخرى. هذا الأمر يساعدنا أيضاً في الوصول إلى حالة من التطوير المستمر لذاتنا بحيث نصبح أفضل في كل مرحلة مراحل حياتنا.

كن موقناً بالله واستعن به في كل ما تفعل:

مما لا شك فيه أن حسن الظن بالله عز وجل وفي حكمته سبحانه وتعالى هو شيء جميل في حد ذاته، وهو من نعم الله التي قد ينعم بها على عباده. هذا الباب من النعم لم يؤته الله عز وجل لكثير من خلق على أهميته، فهو باب من النعم يرتبط بالوصول إلى درجات راقية وعالية من الإيمان بالله وحكمته وقدرته، ويرتبط بيقين راسخ في القلب والفؤاد بأن الله هو مسير الكون وهو القادر على كل شيء وأن لله الأمر المطلق في تدبير حال الإنسان وما حدث ويحدث وسيحدث. وسنجد أن الكثير من آيات القرآن أشارت إلى هذه النعمة وأنه يمنحها لمن يصير قلبه معلقاً بالله فاطر السماوات والأرض، بحيث يتعلق قلبه بخالقه للدرجة التي يوقن فيها بحكمة الله وقدرته.

اليقين بالله والثقة في حكمته كانت في قلب عقيدة الأنبياء والرسل وعلى رأسهم سيدنا محمد وسيدنا إبراهيم عليهما السلام. ولعلنا نذكر بقصة سيدنا يوسف وأبيه يعقوب عليهما السلام، فقد قدمت لنا سورة يوسف أمثلة رائعة حول يقين سيدنا يعقوب الذي جعل قلبه معلقاً بيوسف طيلة فترة غيابه (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (96) سورة يوسف)، بل لعلك عزيزي القارئ قد تتطلع على الآيات الأخيرة من سورة يوسف لتتأمل بنفسك فيما قال سيدنا يوسف من باب اليقين في الله (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100) سورة يوسف)، وها هو سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام يضرب المثل في هذا الأمر حين يلاحقهم فرعون وجنده ويفزع بنو اسرائيل ويخافون وينسون أن الله معهم، إلا سيدنا موسى فيقول كلا إن معي الله (فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (60) فَلَمَّا

تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) سورة الشعراء)، ولاحظوا أن سيدنا موسى لم يقل كلا إن الله معنا بل قال إن الله معي، ذلك أن الله عز وجل لا يكون إلا مع من تقين في الله وأنه عز وجل معه أينما كان وحيث صار فيه. وقد يكون لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام الحظ الكبير من هذا الباب، فيحكي الله عز وجل عنه في قصة الغار حين كان مع سيدنا أبوبكر رضي الله عنه، قال عز وجل (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40) سورة التوبة)، وهذا بالتأكيد معنى جميل للغاية في باب اليقين في الله.

هذه المعاني بلا شك هي من الأهمية بمكان في سبيل شعورنا بالطمأنينة تجاه سعينا لإحداث التغيير وأن الله عز وجل في عوننا.

تعود على قول إن شاء الله وأن تتوكل على الله:

التعود على قول إن شاء الله هو سمة من سمات الناجحين في حياتهم، وقد أشار الله عز وجل إلى أهمية ذلك في قوله عز وجل (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (24) سورة الكهف). من أدوات التغيير بلا شك هو أن ترسخ في عميق اعتقادك أنه لا يمكن أن يحدث شيء في حياتك إلا بإذن الله ووفق مشيئته، وهذا بلا شك هو معنى واضح لا نحتاج لإكثار الحديث عنه. لكن ما نلاحظه في تجربة حياتنا ومن هم حولنا أن التعود على قول "إن شاء الله" يساعد الإنسان على تقبل كل نتائج المستقبل سواء أن كانت تلك النتائج مطابقة لما تحب أن تراه أو عكس ما كنت تتمنى. وعملية التقبل هذه هي من أصعب مراحل التفاعل مع عملية التغيير الذي يحدث لنا في حياتنا، خاصةً في حالة التغيير نحو الأسوأ أو التغيير غير المرغوب أو غير المتوقع، وهذا جزء معلوم من عملية التعامل مع الخسارة. التعود على قول عبارة "إن شاء الله" يعمق في اللاوعي لدينا عملية القبول التلقائي لكل النتائج خاصة السلبية، لكن في ذات الوقت يحفز لدينا عملية اليقين بالله عز وجل في عونه لنا في حدوث عملية التغيير الذي نود أن نراه، أضف إلي ذلك أنها تساعدنا في تحقيق عملية التوكل علي الله عز وجل في جميع شئوننا، وهو ما أوصى به الله عز وجل نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، ونحن من باب الواجب نكون أحق بإتباع هذه الوصية في حياتنا، فقال الله عز وجل (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ

حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159) سورة آل عمران).

التوكل على الله عز وجل في شئون حياتنا جزء أساسي من عقيدتنا كمسلمين، وبدون التوكل على الله عز وجل يكون هناك جزء مفقود في فهمنا لطبيعة الحياة على الأرض ولكيفية حدوث التغيير الذي يحدث بإذن الله عز وجل وحده وبأمر منه لا من غيره. السؤال الأن، هل لسانك معتاد على قول عبارة "إن شاء الله" في كل أمورك؟ وهل تعتبر نفسك من المتوكلين؟

لا تستسلم ولا تقنط ولا تيأس:

إن كانت هناك نصيحة واحدة مستقاة من قصة سيدنا يوسف عليه السلام يجب أن نقولها لك في سبيل جهدك لتحقيق التغيير في حياتك، فستكون هي (لا تستسلم ولا تقنط ولا تيأس)، ولعل الله عز وجل بحكمته قد ختم سورة يوسف بهذه المعاني الجميلة وبهذه الخلاصة، فقال عز وجل (حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (110) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111) سورة يوسف).

اليأس والاستسلام هما بلا شك عدو قاتل لكل من يرغب في حدوث التغيير في حياته، وكثير من الناس يستسلمون مع أول محاولة فاشلة في سبيل تحقيق أحلامهم. لو كان سيدنا يوسف يئس واستسلم مع كل ما حدث له من أحداث وابتلاءات لما كانا قد عرفنا به وسمعنا به، وما كان الله عز وجل أسمى إحدى سور القرآن الكريم باسمه، بل وما كان لينجح هو شخصياً ليكون عزيز مصر في عصره. سيدنا يوسف ظل مؤمناً بحلمه (أو قل النبوة إن شئت)، وظل موقناً بالله متوكلاً عليه، كما ظل كذلك مجتهداً في تحقيق حلمه ولم يتوانى في فعل كل ما يستطيع في سبيل ذلك. بل سنجد أن سيدنا يعقوب عليه السلام، والد سيدنا يوسف، لم يئس أبداً من أن الله عز وجل سينصره بأن يجد أبنه الذي يحبه، ومن يقينه في هذا الأمر أوصى أبنائه على ظلمهم بهذه الوصية (يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (87) سورة يوسف).

التغيير يتطلب المثابرة والتمسك بكل الخيوط الممكنة والتي تمكننا من الوصول إلي أهدافنا، وهذا هو حال المؤمنين في كل زمان ومكان، وهم من يقول الله عز وجل في كتابه الكريم (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ

الصَّابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148) سورة آل عمران). بل سنجد أن الله عز وجل من رحمته بنا نحن عباده الضعفاء إليه أن قد أوصانا ألا نيأس أبداً وإن كنا من المسيئين الظالمين، فيقول رب العزة الرحيم في محكم التنزيل (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) سورة الزمر).

إذا أردت حدوث التغيير في حياتك فعليك بالمثابرة والعزيمة والإصرار في تحقيق ما تود الوصول إليه. نعى أن هذا الجانب هو شيء ليس بالسهل، وأن قوله أسهل من فعله. لكن عليك أن تعي أن هذا الأمر هو بالفعل ما يجعل الناس مختلفين في مدى نجاحهم في هذه الحياة.

لازم الصبر على ضيق الحال فأمرك كله خير لك ولا تستعجل التغيير:

ارتباطاً بالنقطة السابقة التي تناولناها، يجب علينا أن نعى أن الصبر على ما كتب الله لنا من حال لا تنافى مع مبدأ المبادرة إلى إحداث التغيير في حياتنا، فالصبر على ما كتب الله يرتبط بالضرورة مع مفهوم الرضا بقضاء الله وقدره علينا، وهو جزء مهم من عقيدتنا كمسلمين، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153) سورة البقرة). لكن يجب أن نعي أن هذا الرضا بما كتب الله لا يعنى أنه يجب علينا ألا نسعى إلى التغيير نحو الأفضل في أحولنا ومعاشنا، فكل شيء يحدث لنا هو بالأساس مما كسبت أيدينا، وما قضاء الله وقدره إلا لعلمه عز وجل بحالنا ومآلنا قبل أن نخلق إلى هذه الحياة الدنيا. هذا التوضيح من الأهمية بمكان حتى لا نقع في المفهوم الخطأ الذي يروج له البعض بدون علم.

وقد كان التوجيه بالصبر هو مما نصح به سيدنا موسى عليه السلام بني إسرائيل في مواجهة ما كان يحدث لهم من ابتلاءات ومحن، وأوضح لهم أن الله عز وجل سيجعلهم يرثون الأرض بعد صبرهم هذا وسيغير الله حالهم إلى الأفضل بإذنه (قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128) سورة الأعراف)، وبالفعل حقق الله وعده لهم وغير حالهم، فقال الله عز وجل (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (137) سورة الأعراف). غير أن بني إسرائيل لم يستطيعوا الصبر على كل حالهم، فحين نزلت عليهم مائدة الطعام وفيها من رزق الله وخيره،

قالوا (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61) سورة البقرة)، فكانت نتيجة عدم صبرهم أن استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، فغير الله حالهم من الخير إلا ما هو دونه.

الصبر هو بلا شك سبيل من يقدر الله عز وجل لهم النجاح في هذه الحياة الدنيا بل وفي الآخرة كذلك، ليس الكل بقادر على الصبر، كما أنه ليس بمقدار الكل أن يتمتع بالقدرة على تجاوز المرحلة الصعبة من عملية التغيير التي تتطلب منه البقاء متماسكاً والتركيز على الحل دون التوقف مع المشكلة فقط. ولعل حال بني إسرائيل -وفق ما قص علينا القرآن الكريم في الكثير من السور والآيات- يرينا أهمية هذا المفهوم في التعامل مع أحوالنا وحياتنا.

استمع إلى الوحي الذي داخلك:

كما ناقشنا من قبل، الكثير منا يواجه مقاومة في دواخلنا نحو التغيير، خاصةً في الأوقات التي تتطلب منا اتخاذ قرارات صعبة ضمن عملية التغيير في حياتنا. هذا الأمر هو شيء طبيعي للغاية والجميع يمر به. ما يجب علينا في تلك الحالة أن نثق بشعورنا حيال عملية التغيير، خاصة إذا تحرينا في عملية إحداث التغيير كل العوامل التي تناولنها من قبل وأهما اليقين بالله والإيمان به عز وجل وغير ذلك من الأسباب. ما يحدث في ذلك الحال بكل تأكيد أن الله عز وجل يلهمنا ما هو أصلح لنا ولحالنا. لذلك لعلنا قبل أن نواصل الكلام، لعلنا نتذكر معاً جزء مهم من قصة سيدنا موسى عليه السلام، حين قال الله عز عن أم سيدنا موسى (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) سورة القصص). هذه الآية من الأهمية بمكان في فهم ضرورة الثقة بالأحاسيس التي تراودنا حين نواجه قرارات صعبة قد تغير حياتنا، أحياناً إلى الأبد كما حدث لسيدنا موسى وأمه. كل المفاهيم المنطقية ستقر بأنه من المستحيل أن تلقي أم بابنها في مياه النهر كما فعلت أم موسى، لكن علينا أن نستمع جيداً ونعى لما جاءت به الآية الكريم، فقول الله عز وجل (وَأَوْحَيْنَا) يجعلنا نتوقف قليلاً ونفكر في هذا الأمر. سيكون من المهم لك عزيزي القارئ ربما أن تبحث في كتب التفاسير حول تفسير هذه الآية، والإجابة حول سؤال ... هل يمكن أن يوحى الله عز وجل لغير

الأنبياء؟ هل يمكن أن يوحى الله عز وجل لك شخصياً؟ بحثك عن الإجابة بنفسك سيعينك بالتأكيد على فهم هذا الجانب في علاقتنا بالله عز وجل، لكن باختصار نقول هنا أن الوحي الذي أخبر الله عنه هو من قبل وحي الإلهام أو وحي التفهيم إلى القلب. وهذا يدل على وجود هذه التوجيه من الله عز وجل لنا نحن بنى البشر حين نواجه قراراً يصعب علينا اتخاذه فيه خيرٌ لنا طاعة منا لله جل على، لعل هذا الأمر هو من الأمور الجدلية التي لا يمكن لاحد أن يقطع بها، لذا نوصيك مرة أخرى بان تقرأ عن هذا الأمر بنفسك، واقرن ذلك باستحضار تجربتك الشخصية في هذا الجانب. ما نود قوله في هذا الجانب، تذكر دائماً أن الله عز وجل سيكون معك دوماً في كل مكان وزمان، هو عونك وهو نصيرك، عليك بالثقة في ذلك. ثق بأن الله عز وجل سيلهمك ما هو الأصلح لك حين تكون بصدد اتخاذ قرارات تغير حياتك، وعليك بالاستخارة كما علمك الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام وطلب العون من الله عز وجل وكن على يقين من النصر بإذنه عز وجل.

تخير من يعينك على التغيير:

من الأسباب المهمة التي تعيننا في عملية التغيير، خاصة التغيير الإيجابي، هو اختيار من يعننا على تحقيق هذا التغيير سواء أن كان ذلك من أهل صحبتنا أو من يكون ولياً لأمرنا ويقودنا. ولعل الأكثر تأثيراً على حياتنا اليومية هو اختيار الصحبة التي ترافقنا. وربما لا نود الإسهاب في الحديث في هذا الأمر على أهميته، لكن يعلم جميعاً ما هي المفاهيم الأساسية في هذا الجانب. وقد أوصانا الله عز وجل في هذا الأمر، فقال سبحانه وتعالى (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28) سورة الكهف). أما الشق الآخر من هذه الوصية فهو أهمية أن تتخير من يقودك على أساس تقوى الله، وهذا ما يعينك على أن تعيش في مجتمع طيب وفيه من الخير ما فيه. ولنا في بنى إسرائيل العظة في هذا الجانب، حيث كان لاختيار القائد على أساس التقوى الأثر الكبير في النصر وتغيير الحال إلى الأفضل، فقال الله عز وجل في ذلك (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي

مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آَيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آَلُ مُوسَى وَآَلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (248) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (250) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251) سورة البقرة).

اتبع سبيل العلم يرفع مقامك ويغير حياتك:

مما لا شك أن العلم هو مما يعين المؤمن على تغيير حاله إلى ما هو أفضل. كذلك سنجد أن العلم يرفع من شأن من يتلقاه فيصبح في مقام أعلى عند الله وبين الخلق، وهذا من نعم الله على العلماء. وقد وعد الله عز وجل العلماء بهذا الأمر في كثير من المواضع في القرآن الكريم، فمثلا يقول الله سبحانه جل شأنه في محكم التنزيل (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11) سورة المجادلة). وقد قرأت في إحدى المقالات ما يلي "*فكم من أشخاص لم يكن لهم شأن يذكر، وبعد اجتهادهم في تدبر القرآن صارت لهم مكانة ومنزلة رفيعة عند الله تعالى، وصار لهم في الحياة أثر كبير وشأن عظيم*" وهذا أمرٌ لا شك فيه. وكذلك سنجد "*الإنسان المتعلّم يتغيّر تفكيره من نظرة الى أخرى لتجعل منهُ يفكّر في الأمر من ناحية أخرى وبطريقة غريبة تجعل منهُ ينظر الى الأمور من الناحية الإيجابيّة البراقة من الشيء*". وأخيراً "*العلم يرفع الإنسان بين الناس فالعلم يعطي قيمة للإنسان وتجعلهُ مميّزاً بعلمهِ والطريق الذي يسلكهُ يجعل منهُ مختلف وينظرون الناس اليه نظرة احترام ويقتربون منه ليتعلموا من علومه وليتعلّموا من حكمته*".

داوم على شكر الله وأحرص عليه فهو الدليل:

شكر الله عز وجل على نعمه عليك هو دليل على فهمك لأساس مهم من أسس عبادة الله سبحانه وتعالى وأساس مهم من أسس الدين الإسلامي الحنيف. وقد قدم لنا سيدنا إبراهيم عليه السلام القدوة الحسنة في هذا الأمر، فقال عنه رب العزة في محكم التنزيل (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122) سورة النحل). هذه الآيات المهمة خطت لنا بالفعل أهم ما تميز به سيدنا إبراهيم أنه كان قانتاً لله، حنيفاً، غير مشرك، أضف إلى ذلك أنه كان من الشاكرين لنعم الله. هذه الميزات جعلت من سيدنا إبراهيم من أقرب البشر إلى الله عز وجل، وجعله ذلك يتمتع بنعم كثيرة في الحياة الدنيا وصفها الله بحسنة الدنيا. هذا جانب مهم للغاية يجب أن نعيه نحن المسلمون، أن شكر الله عز وجل على نعمه هو الطريق إلى مزيد من النعم ويتغير حالك من حال إلى حال، فهي معادلة بسيطة للغاية وعد الله عز وجل بتحقيقها، فقال رب العزة في ذلك (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7) سورة إبراهيم).

ولعل سيدنا داؤود عليه السلام أدرك هو أيضاً أثر الشكر في تسخير الله عز وجل للدنيا وما فيها له ولذريته، والآيات في هذا الشأن عديدة، نذكر منها قول الله عز وجل (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (13) سورة سبأ)، وقوله عز وجل مثل ذلك (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15) سورة النمل)، وكذلك في قوله عز وجل (فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (19) سورة النمل).

الشكر بلا شك عزيزي القارئ هو أحد مفاتيح النجاح التي سنعينك على تغيير حياتك نحو الأفضل، ولك أن تختار!

أسعى لفهم أسباب نعم الله عليك وتفكر في حكمته في حالك:

ربطاً بالنقطة السابقة حول أهمية شكر الله على نعمه، سيكون عليك عزيزي القارئ أن تفهم بالأساس ما هي الأسباب التي من أجلها منحك نعمه. الحياة في كل جوانبها هي اختبار لنا فيما نفعل بالنعم التي ينعم الله عز وجل بها علينا نحن عبيدنا، فقال الله عز وجل في ذلك (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (165) سورة الأنعام). هذه الحكمة هي من الأشياء المهمة التي تجعل قلبنا متعلق بشكر الله وحمده دائماً على نعمه علينا، لكن الأهم من ذلك أن نعى أن الحكمة في حد ذاتها هي الامتحان. ويقال في حديث العموم "فهم السؤال نصف الإجابة"، فإذا وعيت بما هو مطلوب منك في سؤال الامتحان كانت إجابتك سبيلك للنجاح. ولعل هذا المفهوم وعاه العالم من الجن الذي ساعد سيدنا سليمان على جلب عرش بلقيس، فقال كما جاء في قول الله عز وجل (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40) سورة النمل). وعودة إلى علاقة ذلك بأسباب التغيير، نقول إن إرادة التغيير إلى الأفضل تتطلب منا أن نفهم السياق الأشمل لحدوث التغيير، فكل هذه الأمور تأتي مع بعضها البعض وترتبط ارتباطا وثيقاً، وعليك عزيزي القارئ أن تفهم هذه المعاني المهمة للغاية.

لا تستبدل الذي هو خير بالذي هو أدنى، تمهل وكن واعياً للتغيير الذي تريده:

كنا قد تعرضنا لعدد من المحاور في قصة بني إسرائيل كما وردت في القرآن الكريم، وضمن ذلك كنا قد مررنا على الآية التي يقول في الله عز وجل (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61) سورة البقرة). أوردنا هذه الآية في خلال حديثنا عن الصبر على الحال وأهميته كجزء مهم من عملية إحداث التغيير، وناقشنا كيف أن الصبر مهم في هذا الإطار. لكن في ذات الوقت سنجد أن نتيجة عدم صبر بني إسرائيل هو أنهم حصلوا على تغيير خلاصته أنهم استبدلوا الذي هو خير بما هو أدنى منه. بالتأكيد هذه نتيجة حتمية أحياناً لعدم الصبر على

الحال، فحينما تكون في عجلة من أمرك قد يضطرك ذلك إلى تبني أي خيار تجده أمامك، أو أحياناً تتبع ما تمليه عليك نفسك وهذا الأخير كان هو حال بني إسرائيل. هذا الجانب كثيراً ما نغفله حين نفكر فيما نريده في حياتنا وما نريد أن نغيره فيها. الميزان أو المعيار الذي نقيس عليه هذا الأمر ليس واحداً أو موحداً بين الجميع، فما هو خير لي قد يكون غير ذلك بالنسبة لك أنت، والعكس وارد أيضاً. لكن في كل الأحوال أحرص على أن يكون التغيير فيما هو خير لك ولا تذهب إلى ما هو أدنى إلا في حال كنت مضطراً لفعل ذلك.

داوم على ذكر الله وأحرص عليه فهو السبيل:

جميعنا يعلم قيمة ذكر الله وأهميته ضمن محاور عبادة الله عز وجل، لكن العارفين بالله والعلماء يدركون تمام الإدراك أهمية الذكر بكل أشكاله ومعانيه ومظاهره في إحداث التغيير في حياتنا، وقد قيل "*ذكر الله نعمة كبرى، ومنحة عظمى، به تستجلب النعم، وبمثله تستدفع النقم*".

الذكر يضم بالتأكيد التسبيح والاستغفار والدعاء وقراءة القرآن وغير ذلك من الأشكال والمظاهر، لكن في معناه الأساسي هو أي نشاط يقربك من الله عز وجل فهو ذكر له عز وجل. وكنا قد مررنا من قبل على بعض من ذكر سيدنا زكريا وكيف أنه لجأ إلى الدعاء باعتباره من أهم أسباب حدوث التغيير وذلك حينما تمنى أن يكون له الولد، بالإضافة للمبادرة بالدعاء فإن الله عز وجل قدم لسيدنا زكريا عليه السلام سبيل مهم لحدوث التغيير الذي ينشده، ألا وهو الذكر. وقال في ذلك رب العزة في محكم التنزيل (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آَيَةً قَالَ آَيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (41) سورة آل عمران). الذكر هو السبيل لتحقيق الكثير من الأشياء في حياتنا. الكثير من الناس قام بتجربة هذا الأمر ووجد الخير الكثير في ذلك.

على النقيض من ذلك، فقد وعد الله عز وجل من يعرض عن ذكره من الإنس والجن، بالمفهوم العام للذكر، أن تكون له معيشة ضنكاً أي قاسية وصعبة ودائم انقباض القلب مهموماً وأن كان ذا مال وجاه. قال الله عز وجل في ذلك (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) سورة طه). وهذا بالتأكيد أمر لا يود أحد من المسلمين أن يكون فيه، إلا من أعرض وهو قاصدٌ للإعراض أو من كان غافلاً في هذه الحياة الدنيا.

أحرص عزيزي القارئ على الذكر فهو سبيل من سبل تغيير حياتك نحو الأفضل بشكل عام، فتصبح من حال إلى حال في كل وقت.

أحرص على علاقتك بالقرآن فهو ما يهديك إلى سبيل التغيير:

إلحاقاً بالنقطة السابقة، وللعلاقة الوثيقة بين المداومة على الذكر والقرآن، فإن تقوية علاقتنا بالقرآن الكريم هو بلا شك سبيل آخر من سبل التغيير. ولعلك عزيزي القارئ تكون ممن أفاض الله عليه من فضله بتقوية علاقتك بالقرآن وستدرك تماماً ما نتحدث عنه في هذا المقام، ولعلك أيضاً قد سمعت بالكثير من القصص عن أشخاص تغير حالهم حين قاموا بتقوية علاقتهم بكتاب الله الكريم.

أما يجعل القرآن سبيل للتغيير فهو عدد من الخصائص، نذكر منها في هذا المقام:

- ✓ أنه يحي القلوب والعقول ويجعل من صار من حملة القرآن وأهله حياً بكل ما تحمل كلمة الحياة من معنى. قال الله عز وجل في ذلك (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) سورة الأنفال). حياة القلب والعقل تجعل الإنسان منفتح الأفق مدركاً للكثير من الحكم الربانية في هذه الحياة الدنيا، تجعل الإنسان مدركاً للكثير من المفاهيم التي تساعده في اتخاذ قرارات صحيحة في حياته وتبنى ذلك على أساس عبادة الله عز وجل وطاعته التي هي سبب وجوده في هذه الحياة.
- ✓ القرآن يعين الإنسان دائماً على أن يهتدى لما هو أفضل ولما هو أقوم، وقبل أن نبحث معاً في هذا المعنى دعونا نتطرق لما قاله الله عز وجل في ذلك (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9) سورة الإسراء). وقد قال علمائنا الكثير من المعاني حول هذه الآية، لكن لعلنا نشير في عجالة إلى بعض من هذه المعاني. فالقرآن يساعدنا على خلق التوازن بين دواخلنا ومحيطنا من خلال تعريفنا بمعايير الخطأ والصواب، ويساعدنا على خلق التوازن في العمل. القرآن يساعدنا كذلك في تعريفنا بشريعة الله عز وجل وسنته في خلقه خاصةً فيما تدركه عقولنا في هذه الحياة الدنيا، وهذا هو بالتأكيد أمر لابد لكل إنسان من فهمه كيف يستطيع أن يهتدي للأفضل في حياته ليربط عمله بما كلف به. وغير ذلك من المعاني الجميلة.
- ✓ القرآن يساعد الناس في الخروج من ظلمات الضلال وهوى النفوس وكيد الطاغوت إلي هدى الله عز وجل ونوره، يقول الله عز وجل في ذلك (يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ

رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (16) سورة المائدة).

وغير ذلك من خصائص القرآن الكريم التي لا يمكن حصرها في هذا المقال. لكن مما لا شك فيه أن وعد الله حق ولن يخلف الله وعده، وذلك في قوله عز وجل (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (66) سورة المائدة). أقم القرآن تكن حياتك في أفضل حال، جرب أو اسأل من جرب.

افهم من هم أعدائك في طريق التغيير:

طريق التغيير نحو الأفضل ملئ للأسف بالكثير من المعوقات والتحديات، لكنه بلا شك ملئ أيضاً بأعداء لك قد تعلمهم أو لا تعلمهم، لكن لابد لك من الحذر وفهم هذا الجانب. لكن بشكل عام ستجد دائماً علي رأس قائمة أعدائك الشيطان وأعوانه، ثم نفسك وهواك، وكذلك أفراد المجتمع من حولك ممن يقاومون التغيير، ودعونا نسوح معاً مع بعض الآيات حول هذه المعاني:

- ✓ أول أعدائك وأهمهم هو الشيطان (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (208) سورة البقرة)، ولتدرك أنه سيحاول دوماً أن يفعل بك ما فعله بأبيك آدم عليه السلام (يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (27) سورة الأعراف)، وهنا يرينا الله عز وجل أن الشيطان كان سبباً من أسباب تغيير حال آدم عليه السلام بإنزاله من الجنة إلى الأرض.
- ✓ ثاني أهم أعداءك هو نفسك التي قلنا من قبلها أنها تأمرك في العادة بالسوء ما لم تقدر عليها، وقد ذكرنا هذا الأمر من قبل ولا نود تكراره مرة أخرى. أضف إلى ذلك ما تقع فيه النفس آحياناً من التسويف في فعل التغيير أو من اليأس والاستسلام. ولنا العظة فيمن قال الله عز وجل عنه في محكم التنزيل (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (177) سورة الأعراف).

- ✓ وأخيراً هناك أناس من حولنا يسعون بقصد أو بدون قصد إلي تثبيطنا وجعلنا نخاف، علينا أن نعي أنهم موجودون وأن ننتبه الا نتأثر بهم وبما يقولون، ومنهم مثل من قال الله عز وجل فيهم (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (174) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (175) سورة آل عمران).

إتعظ مما حدث لقارون حين غير الله حاله من حال إلى حال:

أخيراً وليس اخراً، يجب علينا جميعاً أن نتعظ مما حدث لقارون من تغيير حاله من السعة إلى الضيق بسبب ما قدمت يداه وما قال لسانه. قال الله عز وجل في ذلك (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (80) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (81) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (82) سورة القصص). ولعل الآيات تكفينا عن قول المزيد.

كلمات أخيرة:

ولعلنا الآن نعطي الكلمة لبعض من علمائنا ومشايخنا ونستمع لما قالوه في شأن التغيير في حياة المسلم، ولنأخذ بعض النماذج التي تعلمنا بعض الحكم في هذا الأمر:

"التغيير إلى الأفضل أو إلى الأسوأ أمرٌ يقع في نطاق البشر، وعليهم تقع مسؤولية اختيار أحد النجدين: نجد الهُدى والخير والصلاح، أو نجد الضلال والشر والإفساد". "إن تغيير ما بالأنفُس من أفكارٍ ومفاهيم واتجاهاتٍ وميول، أمرٌ موكولٌ للبشر بقدَّر الله، وذلك هو ما تُشير إليه الآيات الكريمة في قوله تعالى (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10) سورة الشمس)."

الدكتور محمد بن أحمد الرشيد

"إنَّ العاقل المُتَنَبِّه إلى قِصَرِ عمرِهِ مهما طال، وأن لقاء الله -عز وجل- آتٍ لا محالة، وأن وراء الدنيا بعثًا وحسابًا، وأن جنة الله وما فيها من نعيم إنما تنال -بعد فضل الله- بالأعمال الصالحة: (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ) [الزخرف: 72-73]، إن من يدرك ذلك كله فسيسعى لتغيير أحواله إلى الأفضل؛ لأنه بهذا التغيير المثمر سيصنع مستقبله الحقيقي يوم القدوم على مولاه -سبحانه وتعالى".

الشيخ خالد بن سعد الخشلان

(... التغيير ... وهو التحول الى الاحسن، بينما التغيير هي التحول الى الأسواء وليس الى الأحسن في الغالب .. اما التحول الى الاحسن اما يكون اصلاح او تجديد واذا اطلعت على الآيات القرآنية تجد ان الآيات التي ورد فيها التغيير تنم الى حالات تحول الى الأسواء فيغير الله واقعها الى الأسواء وهو وعد اذا تغيروا الى الأسواء سيغير الله واقعهم ويغير النعم التي أعطاهم اياها فليس مطلوب التغيير ولكن المطلوب هو التجديد والانتقال الى الاحسن (الإصلاح) .. على هذا النحو فالتجديد يتطلب اولاً أن تذكر الله سبحانه وتعالى ثم تفكر ثم تكتشف الجديد وباكتشافك الجديد تتجدد تلقائيا فتجد في الحياة من حولك فتصنع فرحة حياتية في الناس. وتدبر هذه الآيات

"وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا" و "لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ" وقوله تعالى "ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" صدق الله العظيم".

الاستاذ أحمد الأسودي

"هذه هي أسباب الضعف والاهتزاز بشكل مجمل وبإشارات تغنى عن عبارات، ولا خلاص منها إلا بعملية تغيير جذرية تقوم بها نفوس قوية تأخذ بسنن الله وتمضي على بركة الله، تزيل الخرائب وتعيد بناء الأمة من جديد في فكرها وعملها وسلوكها، وتواكب هذا العصر بكل ما فيه من وسائل ومبتكرات، وتستطيع حينذاك أن تغلب تيار الفساد وتنهي أمره، وتلم شعث الأمة وتمكنها من أن تستأنف مسيرتها من جديد فيتحقق لها ما وعدها الله به من عز ونصر وتمكين".

د. أحمد محمد العسال

اللهم أعنا على تغيير حالنا من حسن إلى حسن بعونك وفضلك، وأجعلنا ممن يكونون سبباً في تغيير حال الأمة مما هي فيه يا رب العالمين.

إنتهى المقال

د. أمجد محمد إدريس